

ما هي الرسالة "الجديدة" التي أرادَ الحوثيون توجيهها للسعودية من خلال قصفِ الرياض بـثلاثة صواريخ دفعَةً واحدة؟

وكيف صَدَّت الأزمةُ الخليجيَّة وانْكماش التحالف العربي في مصلحتهم؟ وهل بات الحال السياسيُّ أقربٍ من أيِّ وقتٍ مضى أم ما زالت فُرَصُهُ محدودةً رغم المبعوث البريطاني الجديد؟

عبد الباري عطوان

ربما تكون المقارنة بين مِنطقتَيْ صعدة شمال اليمن، والغُوطة الشرقيَّة صادمةً، وفي غَير مُحلاًّها، ليس بسبب التباعد الجغرافي فقط، وإنما لاختلاف الظُّروف السياسيَّة أيضًا، ولكن تظل هُناك فواسمُ مشتركة عديدة، أبرزها تهديد المصارِيخ والقذائف التي تنطلق منها لزعزة استقرار العاصِمَتين: الرياض السعودية، ودمشق السوريَّة.

القيادةُ السورِيَّة، وبِدَعْمِ من حليفها الروسي اتَّخذت قراراً حاسِماً بالقضاء على الجماعات المُسلَّحة في الغُوطة بعد قصفِ جويٍّ وأرضيٍّ استمرَّ ما يَقرُب الشَّهرين، وحقَّقت إنجازاً كبيراً في هذا المِضمار، وهو تأمين العاصِمة دمشق وتحييد منصَّات القذائف ضدها، لكن وضع نَظيرَتها السعودية ربما يكون أصعب من ذلك بكثير.

فجر اليوم الإثنين، أطلقت حركة "أنصار الله" الحوثيَّة سَبعة صواريخ باليستيَّة ثلاثة منها باتجاه الرياض، وآخر باتجاه مدينة خميس مشيط التي تَهُم قاعدة عسكريَّة ضخمة، وثالثاً نحو مدينة نجران الجنوبيَّة، واثنين استهدفا مدينة جيزان المحاذية للحدود اليمنيَّة.

إطلاق هذه المصارِيخ السَّبعة جاء في تزامنٍ محسوب بعُناية بعد خطابِ القاءِ السيد عبد الملك الحوثي، رَعيم الحركة بمناسبة "ثلاثة أعوام من الصُّمود في مواجهة عدوان التحالف السُّعودي الإماراتي ودخوله عامه الرابع"، مُتعهداً بمُهاجماتٍ عسكريَّة جديدة في المستقبل القريب، وعزَّزَ هذه الخطوة بالدعْوة إلى مهرجانٍ سياسيٍّ ضخم أُقيم في ميدان السبعين وسط العاصِمة صنعاء شارك فيه مئات الآلاف من أنصار الحركة رفعوا صُوره وشعارات تحدَّث عن التضحيات في

الحوثيون وبعد تخلصهم من شريكهم ومحارفهم الرئيس علي عبد الله صالح باغتياله قبل أن يفكوا التحالف معهم، باتوا القوة السياسية والعسكرية الأضخم على الساحة اليمنية، وأكدوا على هذه الحقيقة من خلال الحشود الضخمة التي حشدوها في ميدان السبعين في استعراض للقوّة لم يُقدم على مثيله إلا الرئيس صالح في أشهره الأخيرة.

استهداف العاصمة السعودية الرياض بـثلاثة صواريخ يـُعكـس خـُطـّةً استراتيجيـّةً مـُحكـمةً للإعداد لـزعـعة أمن واستقرار الحـُكم السـُّعـودـيـ، وبـثـ حـالـة من الرـُّعب والهـَـلع في أوسـاط مـُواطـنـيهـ الذين عـاـشـوا لأـكـثـر من ثـمـانـين عامـاً بـعـيـدـين عن الـحـربـ كـلـيـاً، فـجـمـيع الـحـربـاتـ التي خـاصـتها الـقـيـادـة السـُّعـودـيـةـ منـذ تـولـيـها الـحـُكمـ فيـ الـمـملـكـةـ كانت حـربـاتـ بـالـإـنـابـةـ وـخـارـجـ حـدـودـهاـ، وـحـربـ الـيـمنـ الـحـالـيـةـ هيـ الـاسـتـثنـاءـ الـوحـيدـ، وـالـفـَـهـَـلـ فيـ ذـلـكـ يـعـودـ إـلـىـ الصـوـارـيخـ الـبـالـيـسـتـيـةـ الـبـَـعـيـدةـ الـمـَـدـىـ، وـالـتـيـ تـنـتـمـيـ بـدـقـقـةـ تـصـوـيـبـ عـالـيـةـ.

العواصم غير الأطراف، لأنّها تعكس دائمًا هيبة الدولة، واستقرارها من استقرار الحكم، وهذا ما يُدرِّكُه الحوثيون والقوى الداعمة لهم داخل اليمن وخارجها، وهذا ما يُفسِّر تكرار استهدافها، أي العاصمة، بالصواريخ بين الحين والآخر، لأنّها تشكّل نقطة ضعف الحكم. صحيح أن صواريخ "الباتريوت" نجحت، وحسب البيانات الرسمية السعودية في إسقاطها جميعًا، ولكن يظلَّ تأثيرها الحقيقي في حالة الرعب والفزع التي أحدثتها في أوساط سُكّان العاصمة، الذين صوّروا المعركة بعدسات جوّالاتهم وتبادلوها فيما بينهم، أو أعادوا نشرها على وسائل التواصل الاجتماعي، وتسببت للمرة الأولى في وقوع خسائر بشرية (قتيل وثلاثة جرحى).

حجم الإدانات التي صدرت عن حُكومات عربية وأجنبية عديدة لهذا القصف الصاروخي يُؤكّد على خطورة هذه الخطوة، وحجم القلق الذي تسبّبت فيه، سواء داخل المملكة أو جوارها، في ظلّ الصراع الإقليمي المُتأجّج بينها، أي المملكة، وإيران المُتهمة بــتسليح حركة "أنصار الله" الحوثية بهذه الصّواريخ وتقنيولوجيا صناعتها وتمويلها، أو الإثنين معاً.

إذا كانت الحركة الحوثية لم تخرج مُنتصرةً من هذه الحرب، فإنّها لم تخرج مَهْزومةً أيضًا، ولم ترفع الرّأيَات البيضاء استسلامًا مثلما أرادت " العاصفة الحزم" ، فما زالت تُسيطر على العاصمة صنعاء، وتُخوض حرب استنزاف ضد خصمها السعودي في المَناطق الحُدوديَّة بين البلدين، تستنزفه ماديًّا وبشريًّا، ويتضاعد دورها كقوّة سياسية يمنية كبرى، وأخذ هذه النّقاط بعين الاعتبار هو أقصر الطريق لخروج التّحالف العربي بـ"عامَة" السعودية من هذه المصيدة المحكمة الإلْغاق التي وَقَع فيها، وبِمَكِن القَول أيضًا أن السعودية ما زالت قوّةً إقليميَّةً كبرى، تمامًًا لُكَ ترسانة هائلةً من الأسلحة، وخزينة حافلة بمئات المليارات من الدولارات،

وقادرة على الاستمرار في الحرب أياً ما.

صحيفة "الفايننشال تايمز" البريطانية الرّصينة نَقلت عن مَسؤولٍ سُعوديٍّ كَبير قوله أن تكاليف السّـنوات الـثلاث الماضية من عُمر الحرب في اليمن وصلت إلى 120 ملياري دولار، ولكن التّـتكاليف السياسية بالذّـسبة إلى المملكة وقيادتها أضعاف هذا الرّـقم الذي يَعتقد الكثير من الخبراء بأنّه أقل بكثير من الرّـقم الحقيقيّ.

الحوثيون أطلقوا حتى الآن أكثر من 100 صاروخ باليستيٌّ على مُدنٍ سُعوديّة كُبرى، احتاجت عملية إسقاط كُل صاروخ إطلاق من خمسة إلى سبعة صواريخ من نوع "باتريوت" قيمة كُل واحد منها تتراوح بين خمسة وسبعين ملايين دولار، وبحسبة يُمكن القول أن مُجمل تكاليف هذه العملية وحدها تَقترب من 700 مليون دولار.

نحن هُنا لا نتحدث عن الطّـلعات الجوية لطيران عاصفة الحزم على مدى ثلاث سنوات، وأعداد الصّـواريخ والذّـخائر التي استخدمتها، وجميعها تم شراؤها من دول غربية، وبأثمان باهظة، علّوةً على حجم المساعدات المالية التي قدّمتها المملكة لحكومة الرئيس هادي "الشرعية"، ودعم عملتها المحليّة، وجّمـعـواـيـضـاتـ وـتـكـالـيفـ عـمـلـيـّـةـ إـعادـةـ الإـعـماـرـ لـاحـقـاـ.

لا أحد داخل المملكة يَتحدّث عن الخيار العسكري كحل للأزمة في اليمن، مثلاً كان عليه الحال في بداية "ال العاصفة"، ولكن لا أحد يَمْلِك خريطة طريق في الوقت نفسه للوصول إلى التّـسوية السياسية التي يُمكن أن تُوقف هذه الحرب، ولا يستبعد أن إطلاق هذا العدد من الصواريخ الباليستية على أربع مُدنٍ سُعوديّة كُبرى هو تمهيدٌ للتفاوض، إن لم يكن ورقة ضغط للوصول إليه.

القيادة السعودية كانت وعلى مدى السّـنوات الـثلاث الماضية تَقول أن الرّـياض هي بوابة الحل، بينما يعتقد الحوثيون أنّها صنعاء، ولهذا لا بد من إقناع الطّـرفين بالبحث عن منطقة وسط بين الإثنين، مثل الكويت أو مـسـقطـ، وربـما تكون هذهـ هيـ المـهمـةـ الأـبـرـزـ لـمارـتنـ غـريفـيـثـ، مـندـوبـ الأـمـمـ المتـحدـةـ البرـيطـانـيـ الجـديـدـ الذي حلـ محلـ السيدـ إـسمـاعـيلـ ولـدـ الشـيـخـ، ولعلـ كـوـرـهـ بـرـيطـانـيـاـ أبيـضـ اللــونـ أـزرـقـ العـيـنـينـ، يـجـعـلـ منـ فـرـصـ زـجاـحـهـ أـفـهـمـلـ بـسـبـبـ "عـقدـةـ الخـواـجةـ" المـؤـاصـلـةـ لـدىـ مـعـظـمـ العـارـبـ.

العام الرابع للأزمة اليمنية سيكون مختلفاً عن كُل الأعوام الســابـقـةـ، ولهذا قد يكون حافلاً بالمفاجآت، وأبرز عناصر الاختلاف أن "التــحـالـفـ الـعـارـبـ" الذي يُحارـبـ الـحـوـثـيـنـ فيـ الـيـمـنـ يـنكـمـشـ، وـبـاتـ يـقتـصـرـ عـلـىـ دـولـتـيـنـ فـقـطـ هـمـاـ الســعـودـيـةـ وـإـمـارـاتـ، وـهـنـاكـ منـ يـتـحدـثـ عـنـ خـلـافـاتـ بيـنـهـمـاـ، وـثـانـيهـمـاـ أـنـ الـأـزـمـةـ الـخـلـيجـيـةـ صـبـتـ فـيـ خـدـمـةـ الـحـوـثـيـيـنـ، وـكـسـرـاتـ الـحـصـارـ الـإـعـلـامـيـ الـخـارـقـ عـلـيـهـمـ، بـخـروـجـ قـطـرـ منـ هـذـاـ التــحـالـفـ، وـتــوـظـيفـ إـمـراـطـورـيـّـتـهاـ الـإـعـلـامـيـةـ وـأـذـرـعـهاـ الـضـارـبةـ فـيـ

خـدمـتـهمـ، وـمنـ شـاهـدـ تعـاطـيـ قـناـةـ "ـالـجـزـيرـةـ"ـ معـ الـهـجـماتـ الـصـارـوـخـيـةـ عـلـىـ الرـيـاضـ، وـفـاتـحـ شـاشـتهاـ للـسـيـدـينـ عـبـدـ الـمـلـكـ الـحـوـثـيـ، زـعـيمـ الـحـرـكـةـ، وـالـسـيـدـ مـحـمـدـ الـبـخـيـتـيـ، عـضـوـ مـكـتبـهاـ السـيـاسـيـ، يـُدـرـكـ مـعـنـىـ ماـ نـقـولـ.

الـحـوـثـيـوـنـ يـقـولـونـ: وـقـفـ الـغـارـاتـ الـجـوـيـةـ مـقـابـلـ وـقـفـ إـطـلاقـ الصـوـارـيـخـ عـلـىـ الرـيـاضـ.. وـهـذـهـ مـقـاـيـضـةـ رـبـّـمـاـ تـقـصـدـرـ مـائـدـةـ الـمـفـاـوضـاتـ الـتـيـ بـاتـتـ وـشـيـكـةـ أـوـ حـتـمـيـةـ لـإـنـهـاءـ هـذـهـ الـحـرـبـ.. وـاـمـ أـعـلـمـ.